مُفْتَتَح

ما يزال الشعر أكثر فنون القول العربى ثراءً، نقولها على الرغم مما وقر فى الأذهان من أن القصيدة العربية المعاصرة تعانى مرارة الانكسار، بعد أن مرّت على امتداد العقود المنصرمة من هذا القرن بأطوار تفاوتت بين روعة المدّ ولوعة الانحسار.

والحق أن واقع القصيدة العربية لم يتخلف عن واقع غيره من طرق التعبير الأدبى، وإذا كانت هذه القصيدة تجتاز واحدًا من المنعطفات الحادة فى مسيرتها الطويلة، فلا شك أنها ليست وحيدة فى هذا المقام، ومَنْ ذا الذى يستطيع أن يقرر - بملء الاطمئنان - أن واقع الرواية العربية يحظى بنفس القدر من الخصوبة الذى كان من نحو ربع قرن، وما يصّدق على الرواية قد يصدق - إلى حدّ مّا - على فن القصة القصيرة، وقد تزداد جرعة الصدق فيه إذا ما كان الحديث عن الأدب المسرحى.

إن القضية - فيما نخال - ليست قضية فن أدبى بذاته، وإن كانت فى الشعر أكثر خصوصية وتعقيدا، بحكْم ما فى أعرافه وتقاليده من خصوصية وتعقيد، وهى عند التحقيق ذات وجهين؛ وأحد هذين الوجهين عام، تعكسه روح العصر، والإيقاع الحضارى السريع، ونبض التغير اليومى فى وسائل التقنيّة الصناعية ومستحدثاتها، وهو نبض يلهث إنسان العصر وراءه، وقد يلهيه هذا اللّهاث عن القيم الكامنة وراء هذا التطور، وعن تجلّيات هذه القيم فى الفنون المختلفة، وساعتها قد يحدث نوع من الاختلال فى التوازن المفترض بين حجم التطور القيمىّ وحجم التطور المادى؛ ومن ثم نخال أن هذا الجنس الأدبى أو ذاك يعانى من أزمة أو ما يشبه الأزمة، وما هى بأزمة جنس بذاته، ولا هى

أزمة أدب بعينه، ولكنها مضيق العصر بأكمله.

أما الوجه الآخر فربما كان أكثر تميُّزا وتحديدا، لأنه يتعلق بمسئولية **الدرس العلمى للأدب**، وبعبارة أكثر دقة : **بمسئولية النقد المنهجى** تجاه الكتابة الإبداعية، إذ لا مناص من الاعتراف بأن قسطا كبيرا من مهامّ الدرس الأدبى فى المؤسسات العلمية المختلفة منوط بترشيد عملية الخلْق الأدبى، وتسديد خطوات المبدعين، بقراءة ما ينتجون، ثم بالتصدّى لهذا الذى ينتجون بالتأويل والتحليل والتقويم، وفى هذا المقام ربما لحظنا ما يخيم على مناخ النقد الأدبى من رهْو ثقيل، شطر منه من قبيل القصور، وشطر آخر من باب التقصير؛ فبعض الطيور هاجر، وبعضها آثر أن يلقى بالقلم، عُزوفًا أو رفضا، وآخرون يتخلصون من التبعة بإلقائها على كواهل المبدعين، نظرا للعلاقة الحميمة بين الانكماش النقدى والانكماش الإبداعى، وهكذا تتسع الحلقة، وتنماع المسئولية، وبدلا من أن يكون المضيق مضيقا نقديا، تصبح الأزمة أزمة أدب برمته.

من هذه الحقيقة ينبع الباعث الذى أملى بحوث هذا الكتاب، فهى جميعا تتناول - بشكل أو بآخر - «واقع القصيدة العربية» إيجابا وسلبا، بغْية تعميق ملامح الإيجاب ونفْى خطوط السلب، وإن كان هذا التناول متعدّد المحاور، فقد ينصرف إلى المداخل النظرية، كالحديث عن قضية المنهج، أو عن قيمة الشكل فى الشعر، وقد يتوجّه إلى الظواهر، كالبحث فى منجزات القصيدة العربية ومزالقها وآفاقها، وكالحديث عن توظيف المقدمة فى الشعر المعاصر، أو عن أنماط التشكيل بالموروث فى كثير من نماذج هذا الشعر، وقد يكون التعامل مع «واقع القصيدة العربية» من خلال نتاج شاعر بذاته، كتلك البحوث التى تناولت التجديد بالصورة فى شعر محمود حسن إسماعيل، أو تطوّر المرايا الشعرية فى إبداع نازك الملائكة، أو الأصوات الجديدة فى الشعر السودانى الحديث.

وكثرة بحوث الكتاب نشرت من قبل على شكل دراسات مستقلة فى الدوريات الأدبية والعلمية، ولكننى آثرتُ تقديمها فى هذه الصورة الكتابية الماثلة

لسببين، أولهما: أنها جميعا تعالج مادة إبداعية واحدة، هى القصيدة العربية المعاصرة، ومن ثم لا تعانى كثيرا من توزّع المنظورات أو انفصام الموضوعات، بل توفر قدرا لا بأس به من تناغم هذه وانسجام تلك، وثانيهما: أن جملة هذه الدراسات تنداح على مدًى زمنى غير شاسع الرقعة، فجلّها كتب أو نشر فى بحر الأعوام الخمسة المنصرمة، ومن ثم تضمن حدًّا أدنى من وحدة البصر العلمى، وتنجو - نوعًا مّا - مما يشوب هذا الضرب من الكتب من فجوات النظر، واختلاف المقاييس، وتضارب طرق المعالجة.

والحد الأدنى من وحدة البصر العلمى - كما يدركه هذا الكتاب - هو الاعتقاد بأن الأدب تشكيل باللغة فى المقام الأول، وأن معالجته بنفس منطقه، أى بطريقة أدبية، تقتضى ممن يتصدّى له أن يحلله تحليلا تكامليا، وأن يجعل قطب اهتمامه تلك المقومات التى تميزه عن غيره من بقية ضروب الإبداع، والتى جعلت منه «لغة» أوّلا، «وشكلا» ثانيا.

وإذا كان هذا الحد الأدنى من البصر لازما بالنسبة لأجناس القول بصفة عامة، فهو أشدّ لزوما بالنسبة للغة الشعر، فهى اللغة الأخصّ فى سلّم الأساليب الوظيفية، وتتميز بالتكثيف الشديد فى إيماءاتها، والتحنث البالغ فى انتقاء المواد وتنظيمها، ومن ثم تفترض فيمن يواجهها - بالقراءة والتحليل - قدرا من التوفّر والاحتشاد، يكون كفاء ما بذله مبدعها من عناء ومكابدة، وما بثّه خلالها من مُعطيات جمالية وفكرية.

ترى هل كانت هذه السطور تقديما؟ إن كانت كذلك فلعل ما تقدمه يصلح عطاءً متواضعا فى محراب أعرق فنون العربية: الشعر، ذلك الشيخ المهيب الجليل.

العجوزة فى ٢٠ مارس ١٩٨٤

محمد فتوح أحمد